أنواع الخط العربي

سار الخط العربي في رحلة حياته مسيرة طويلة، تبين لنا أن مسيرته قبل الإسلام كانت بطيئة جداً بينما نجده يقفز قفزات سريعة بعد الإسلام ويصل إلى درجة الإبداع، حيث تناوله الخطاطون بالتحسين والتزويق، وأضفوا عليه من إبداعهم جماليات لم تخطر على بال فنان سابق، لِما صبُّوا في الحرف العربي من قواعد ثابتة، وأصول يجب على الخطاط أن يلتزم بها ليكون خطاطاً ناجحاً.

وقد استطاع الخطاط العربي أن يبتكر خطوطاً جديدة من خطوط أخرى فهذا ابن مقلة يبتكر خط الثلث، لقد اشتقه من خطّي الجليل والطومار، وسمّاه في أول الأمر (خط البديع) وقد استطاع أن يحسّنه ويجوّده حتى فاق فيه غيره، واشتهر بنيل قصب السبق فيه إلى عصرنا هذا، ولم يتجرّأ خطّاط أن يتقدمه، فاعتبره الخطاطون فيما بعد مهندساً للحروف العربية، لأنه قدّر مقاييسها وأبعادها بالنقط، فلكل حرف أبعاده الثابتة، ولكل بُعد نقطه المحدّدة التي لا يجوز تجاوزها. ثم جاء ابن البواب فزاده جودة وجمالاً، وأسبغ عليه من ذوقه.واستطاع الخطاط التركي ممتاز بك أن يبتكر خط الرقعة من الخط (الديواني) وخط (سياقت) حيث كان خط الرقعة خليطاً بينهما. وقام الخطاط مير علي سلطان بتطوير وتحسين خط الإجازة.

وبرع الخطاط عثمان في الخط الديواني وفاق مبتكريه أيام السلطان محمد الفاتح.

وهكذا استمرت رحلة الخط جودة وتطويراً، وابتكاراً حتى كان الخط الحديث الذي ظهرت له الآن نماذج كثيرة خالية من القواعد والضوابط.

وقد سميت الخطوط العربية بأسماء المدن أو الأشخاص أو الأقلام التي كتبت بها، وقد تداخلت هذه الخطوط في بعضها، واشتق بعضها من الآخر، وتعددت رسوم الخط الواحد، فكانت لكثرتها تشكل فناً من الفنون التي أبدعها الخطاطون العظام كالخط الكوفي مثلاً، وقد تطورت هذه الخطوط نتيجة إبداع المهتمين بها والمتخصّصين بكل خط منها، فبلغت ذروتها لدى المتأخرين، وإن كان الأوائل قد نالوا قصب السبق فيها على جدران بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس.

- **المواد التي كتب عليها الخط العربي بمرور العصور:**

١- في العصر الجاهلي:

كان العرب في الجاهلية يكتبون على (أكتاف الإبل: أي العظام العريضة)، (اللخاف: أي الحجارة الرقيقة البيضاء)، (العُسب: وهي جمع عسيب أي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة، أو الذي ينبت عليه الخوص من السعف)، (الجلود المدبوغة التي تسمى "الأدم" من جلود الغنم والحمر الوحشية والإبل والماعز، والجلود البيض منها تسمى القضم ج قضيم)، (الرقوق: جمع رق وهي جلود رقاق ترقق ليكتب عليها). (المهارق، جمع مهرق وقد وردت في الشعر الجاهلي في شعر الأعشى والحارث بن حلزة وأصلها فارسي معرب وهي ضرب من الصحف تصنع من الأقمشة الحريرية ويكتب الناس بها، وقد أخذ العرب عادة الكتابة بها عن الفرس)، (القراطيس جمع قرطاس: لعله بردي مصري)، (الأقتاب جمع قتب: وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه).

٢- عصر صدر الإسلام:

حوفظ على المواد السابقة كلها للكتابه فالقرآن الكريم كتب على: (العُسب)، (القُضم)، (الأدم أي الجلود وعلى الأدم كتب عهد الخيبريين اليهود، وعهد الرسول إلى تميم الداري)، (الرق: وعلى الرق كتبت مصاحف عثمان بن عفان وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم "والطور *وكتاب مسطور *في رق منشور" صدق الله العظيم)، (القرطاس وقد ورد أيضاً في القرآن الكريم.)، (الأقتاب أي ألواح الخشب وقد جمع القرآن من الأقتاب في أيام أمير المؤمنين أبي بكر الصديق).

٣- في العصر الأموي:

حوفظ على كتابة المصاحف بالرق وعلى الجلود كما انتشرت الكتابة على القراطيس أي البرديات المصرية وامتاز الخلفاء الأمويين بذلك من عهد معاوية . كما انتشرت الكتابة على القماش والحرير في الحجاز في العصر الأموي .

وخط الطومار يعني (خط الصحيفة) وقد سمّاه الأتراك خط (جلي الثلث) و راح الخطاطون في العصر الأموي - ولأول مرة - يخطون خطوطاً جميلة تزين القصور والمساجد والخانات، ويكتبون بهذه الخطوط في سجلّات الدولة الفنية ودواوينها الحديثة، فنالوا حظوة لدى الأمراء والخلفاء، وجعلوهم في صدارة مجالسهم، واستعملوهم في دواوينهم. وأصبحنا نرى هذه الخطوط الحديثة الجميلة في هذا العصر تزين القباب والمآذن والمساجد والقصور التي حُلّيت بالفسيفساء والخشب المحفور والمطعم بالفضة والمعادن والزجاج، ليس في العاصمة دمشق فحسب، بل في أبعد المدن القاصية عنها والثغور، وهذا ما نراه واضحاً بعد أكثر من أربعة عشر قرناً في المسجد الأموي في دمشق، وقصر الحير الشرقي، وآثار رصافة هشام، ومحراب المسجد الأقصى وقبّته وغيرها. كان الخطاطون في العصر الأموي يكتبون في سجلّات الدولة بخط (الثلثين) الذي أطلقوا عليه لكثرة ما كتبوا به السجلّات اسم خط (السجلّات) (أما خلفاء بني أمية فكانوا يكتبون بخط الطومار وبالخط الشامي، و قد نشط عدد من الخطاطين في هذا العصر، لعبوا دوراً هاماً في النهوض بالخط كحركة فنية فتية.

وفي العصر الأموي لابد من ذكر أمران في غاية الأهمية، أولهما: ادخال ما نسميه اليوم "الشكل" على الحروف أي حركات الإعراب من ضم وفتح وسكون.

ثانيهما: ادخال ما نسميه اليوم ب "النقط" التي تميز بين الحروف المتشابهة في الصورة: "كـ" الباء، التاء، و الياء أو الجيم، الحاء، و الخاء" فالنصوص تذكر أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ كان أول من اخترع حركات الإعراب فأدخلها إلى المصحف، متخذاً منها نقط تدل عليها فقد قال لكاتبه "إذا رأيتني لفظت بالحرف فضممت شفتي فاجعل أمام الحرف نقطة فإذا ضممت شفتي بغنة فاجعل نقطتين، فإذا رأيتني كسرت شفتي فاجعل أسفل الحرف نقطة وإذا كسرت شفتي بغنة فاجعل أسفل الحرف نقطتين، وعلى هذا النحو في الفتح أيضاً."

أما النقط التي ميزت الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء مثلاً.. فقد أدخلها على ما تذكر النصوص "نصر بن عاصم" و "يحي بن يعمر" وكلاهما من البصرة وتوفيا سنة ٩٠ هـ.

بقيت المصاحف بلا نقط تميز الحروف المتشابهة طول القرن الأول، وعندما بدأوا ينقطون أدخلوا النقط على الياء و التاء وباقي الحروف المتشابهة. ثم أحدثوا الفواتح والخواتم أي فواتح السور وخواتمها كما وضعوا التشكيل والتذهيب أيضاً .

فن الخط العربي

علم الباليوغرافية، أو علم تطور الخط العربي، علم جديد لم يكتب عنه الكثير من العلماء المعاصرين على المنهج العلمي المتبع عند الغربيين فالدراسات التي ظهرت عن الخط العربي مجزأة غير كاملة أي أنها تناولت أطراف علم الخط العربي وبها عيب شديد الخطورة من وجهة نظري وهو أنها استندت على النصوص النظرية ولم تستند إلى النماذج الخطية فجاء أغلب ما فيها غامضا أو عاما.
وكذلك المستشرقين لم نجد عندهم كتبا عن تاريخ الخط العربي، وما نجده عندهم هو بعض الدراسات التي تناولت نواحي من الخط العربي كالكتابة على البرديات أو الكتابات على الأحجار... أو غير ذلك.
ولقد دعا الدكتور صلاح الدين المنجد: إلى نظرية جديرة بالتقدير والاحترام وهي "إن الخط العربي لا يدرس إلا بنموذج" و أن الخط العربي واحد في أساسه أيا كانت المادة التي كتب عليها.

كيف ينبغي أن ندرس الخط العربي:

إن الكثير من الدراسات التي عنيت بالخط العربي وتطوره حتى اليوم لا تزال تعاني من نقص وعجز عن تفسير الغموض الذي يحيط بطرائق الخط العربي المختلفة تفسيراً كاملاً، ولقد أرجع العلماء أسباب هذا الغموض المخيم على تاريخ الخط العربي إلى أن تلك الدراسات كان باحثوها معتمدين اعتماداً كاملاً على أحد مصادر الخط العربي ولم ينظروا إلى باقي المصادر فقد كان فريقاً يبحث من خلال أوراق البردي، وفريقا يبحث من خلال الكتابات القديمة على المباني والأحجار، وفريقا ثالثاً يبحث في المخطوطات والمصاحف، وفريقا رابعا يبحث في النصوص النظرية في الكتب التي تحدثت عن الخط والفريق الخامس بحث في المصادر الفارسية والتركية مهملاً المصادر العربية. وكان بعض هؤلاء الدارسين لا يتقن اللغة العربية فلم يفهم معنى أسماء بعض أساليب الخط واستنتج نتائج عجيبة وكثيراً منهم قرأ الكتابات القديمة أو النصوص قراءات خاطئة، وقل أن نجد باحثاً اعتمد على المصادر جميعها في آن واحد مع اتقانه اللغة العربية ومعرفة دقائق معانيها ولأن الخط العربي دائما كان واحداً في أساسه أياً كانت المادة المكتوب عليها كان واجباً على أي باحث أن يشمل ببحثه كل مصادر الكتابات العربية والتي تتمثل في: المصاحف القديمة على اختلاف عصورها، أوراق البردي الاسلامية، الكتابات على المباني أو النصب التذكارية، أو الخشب، الكتابات على النقود، الأقمشة و الطروز، الآثار المنقولة (الأطباق، السرج، الأواني، الخواتيم، الموازين، الزجاج)، الأخشاب، النحاس، السيوف أو الكتابات التي ظهرت على الآلات العلمية، أو الرسائل النظرية التي ألفت عن الخط العربي خلال العصور المختلفة، أن يقوم الدراسون بأبحاث على ذلك كله عصراً عصراً وبتدرج تاريخي.

ولقد انتشر الخط العربي في رقعة كبيرة جدا من العالم حيث انتشرت اللغة العربية، حيث استطاع الخط العربي أن يتغلب على الخطوط التي كانت شائعة قبله في البلدان المفتوحة فيمحوها تارة أو يسود عليها تارة كما فعلت اللغة العربية نفسها في اللغات السابقة لها.
ولقد اتبع الخط العربي في هذه الأقاليم المختلفة أساليب يختلف بعضها عن بعض اختلافا بسيطا مع قيامها كل على أصل واحد فالخط الكوفي الأندلسي يختلف عن الخط الكوفي القيرواني وكلاهما يختلف عن الخط الكوفي التي كتب في دمشق أو بغداد أو القوقاز.
ولقد تطورت بعض الأساليب في بعض المدن وازدهرت وتخلف بعضها في بلاد أخرى، كل حسب مَد الحضارة التي وصلت إليها وانحساره عنها.
وكذلك كان للمادة التي كتب عليها دور في تطور الخط العربي وتنوع أشكاله وأنواعه، واستطاع الفنان العربي اختيار المادة المناسبة والخط المناسب لنوع كل مادة فهناك أساليب توافق المادة القاسية وأساليب توافق المادة اللينة.
كما أن الخط العربي أصبح فناً بعد نشأته وتطوره، وعند البحث والدراسة في الفن لابد من دراسة الفنان الذي أبدعه فالخطاطون المسلمون كانوا جميعاً فنانين، وكل واحد منهم كانت له مدرسته الفنية وطابعه الخاص وخصائص شخصيته أظهرتها إلى حد ما البيئة التي عاش فيها الخطاط.
بل أن الكثير من العلماء اعتقدوا أن كل خطاط عكس في خطه البيئة التي عاش فيها، وتلك الانعكاسات المختلفة سواء كانت انعكاسات شخصية الفنان، أو انعكاسات البيئة، والحضارة والثقافة لا يقيدها إلا القواعد العامة لشكل الخط العربي.

في هذه المرحلة من بحثي ودراستي عن فن الخط العربي قفزت في عقلي أسئلة كثيرة أولها عن كيفية نشأة الخط العربي أين كانت بدايته وكيف وصل إلينا هذا الخط بهذه الصور الكثيرة كيف أصبح تشابك الحروف فناً يملك الأفئدة فور رؤيته بعد ما اضافه له الخطاطون العرب ؟؟ وفيما تأتي الاجابة...

رغم رحلات التجارة المتبادلة بين الجزيرة العربية وبلاد الشام التي تواجدت بها خطوطاً ك" السريانية" و "المسند الحميري" في اليمن فلم يتأثر الخط العربي بأي منهم ولا انتقل من الأبنار إلى الحيرة ومنها إلى بلاد الحجاز عن طريق دومة الجندل...
ولقد أثبتت الدراسات والمقارنات بأن الخط العربي لم يتأثر بخطوط أخرى ولم يكن وليد تزاوج أياً من تلك الخطوط ولكن رجح العلماء أنه قد اشتق من الخط النبطي بل قد يكون هو آخر شكل من ذلك الخط.

الخط العربي... فن له تاريخ.

- **ما قبل الإسلام:**

ذكر التاريخ أن الخط العربي تواجد في زمن الجاهلية ولكن لم تصلنا آثار دالة عليه في تلك الفترة ولكن من المحتمل العثور على بعضها إذا أجريت حفريات في مكة وجباها وضواحيها، ولقد كانت الكتابة منتشرة في مكة قبل الاسلام لأنها كانت مركزاً تجارياً وكانت الحضارة فيها أوسع مما حولها. كما ذكر المؤرخون أن الخط الذي كانوا يكتبون به قبل الاسلام "الخط المكي". ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ لنفسه بعض الكتاب في مكة كتبوا له بالخط المكي وعندما هاجر إلى المدينة المنورة كان كاتبه "أبي ابن كعب" وكان يكتب رسائل الرسول وظهر حينها خط سمي "الخط المدني".
وصل إلينا نموذجان من الخط المكي و الخط المدني: أحدهما محفوظ في مكتبة الفاتيكان وفيه قطعة من سورة هود ومكتوب على الرق و لعله أقدم المصاحف المكتوبة على الرق في العالم. أما الثاني عبارة عن مخطوطة محفوظة في المتحف البريطاني وهي أقدم مخطوطة في المتحف البريطاني وتعود إلى العصر الأموي.

- **عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:**

لقد ألفت المجتمعات القديمة الفن في الصور والتماثيل، لكن العرب بعد الإسلام جعلوا الخط العربي فناً من الفنون، حيث يقف المشاهد مشدوهاً أمام لوحة الخط يتفحّص الجهد الذي بذله الخطاط، والدقّة والمقاييس المتقنة للوصول إلى هذه اللوحة الرائعة.
إن بداية إبداع الخط العربي بدأ في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن تلك البداية المتواضعة طوّر الخطاطون خطوطهم فيما بعد. وقد ترك لنا هذا العصر عدداً من الرسائل التاريخية القيمة التي أرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد كتبت على الرق وهي ذات قيمة تاريخية كبيرة. ولقد وصلنا أيضاً من عصر الرسول كتابات مختلفة بعضها على الحجر فلقد وصلنا كتابات من نوع "غرافيتا" كشفها محمد حميد الله في جبل "سلع" بجوار المدينة المنورة ترجع إلى أوائل الإسلام وهو يعتقد أنها منذ غزوة الخندق. ومن الملاحظ على هذه الكتابات أنه لم يظهر عليهما تاريخ وذلك طبيعي لأن المسلمين لم يبدأوا بالتاريخ إلا في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٦ للهجرة.

- **أما عن عصر الخلفاء الراشدين:**

تطور المجتمع العربي الإسلامي في زمن الخلفاء الراشدين تطوراً ملموساً، وأصبحت سيادة الدولة بدلاً من زعيم القبيلة، كما أصبح القانون مكان العرف والعادة، ونتيجة لذلك فقد دوّنت الدواوين، وأصبحت للخط مكانة، مما جعل رابع الخلفاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحث على تحسين الخط وإتقانه، لأن المرحلة التي كانوا فيها تستدعي قوة الدولة، ونهضة العلم المتمثلة في البحث والتدوين، مما يجعلنا واثقين أن الخط العربي (انتشر بنمو الإسلام وامتداده، ووصل في زمن قصير إلى جمال زخرفي لم يصل إليه خط آخر في تاريخ الإنسانية
فلما انتهت الخلافة الراشدة كان الخط قد برز كعلم وفن، له قواعده وأصوله، وأخذ يتحفّز لينطلق من الجزيرة العربية شرقاً وغرباً وشمالاً، مع سرعة الفتوحات الإسلامية في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوسعها خلال الفترة الأموية.
لقد كانت بدايات النهضة العربية في زمن الخلفاء الراشدين، الذين أرسوا قواعد الدولة الفتية، وبدؤوا في التغيير الملائم، وحيث أن الحياة بدأت تتغير، فقد تغيروا بما يلائم الحداثة والعصر الجديد، فحين انتشر اللحن لاختلاط العرب الأقحاح بالعجم، رأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يضع ضوابط للّغة العربية، وكانوا قبل ذلك لا يحتاجون إليها لسلامة نطقهم، ونقاء فطرتهم، فأوعز لأبي الأسود الدؤلي أن يضع تلك القواعد الثابتة في النحو.
إن هذا التطور في الخط العربي فرضته الظروف التي تغير العرب بسببها من حال إلى حال، ولو بقوا على ما كانوا عليه لما احتاجوا إلى وضع الحركات والشكل، وابتكار النُّقط التي ميَّزت بعض الحروف عن بعضها.

- **ولقد اختلفت كثيرا الكتابات التي وصلتنا من عهد الخلفاء الراشدين ما بين سنة (١١هـ - ٤٠ هـ):**

١- البرديات: هي الكتابة على البردي وأشهر ما وصل إلينا منها الوثيقة المؤرخة سنة ٢٢ه / ٦٤٣ م أي في عهد عمر بن الخطاب، وقد كتبت بخط قريب من اللين وهذه المخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية في فيينا ضمن مجموعة رينر وكانت قد اكتشفت في بلدة "اهنس" في مصر وهذه البردية فيها نقط على بعض الحروف كحرف (النون، الشين، الزاي، الذال، الخاء).
٢- أما عن الكتابات الحجرية التي وصلتنا من عصر الخلفاء الراشدين فأقدمها وأهمها شاهد قبر عبد الرحمن بن خير المؤرخ من سنة، محفوظ في متحف الآثار الإسلامية وقد نقش بالخط اليابس وهذه الكتابة هي أقدم كتابة حجرية إسلامية، والخط فيها مستقيم غليظ.
٣- أما المصاحف فقد وصل إلينا بروايات موثوقة لا تقبل الشك أن عثمان بن عفان أمر بكتابة عدة مصاحف وإرسالها إلى الأمصار مع قراء ليعلموا الناس القراءة الصحيحة للقرآن الكريم وكانت هذه المصاحف مكتوبة على الرق، وكانت عارية من النقط والتشكيل والتحلية ولم تكن أيضا مذهبة ولا توجد علامات على رأس الآيات أي لا توجد بينها فواصل وهذه المصاحف تسمى المصاحف العثمانية نسبة إلى زمن عثمان بن عفان وكتبت بالخط المدني.

- **أما عن الخط العربي في العصر الأموي:**

فلقد أحرز الخط في العصر الأموي تقدماً ملموساً على ما كان عليه في العصرين السابقين، واستطاع أن يُبرز ولأول مرة الخطّاط، ومهنته إلى الوجود؛ رغم أن الحروف كانت خالية من النقط، وقد لمع نجم عدد من الخطاطين يأتي في مقدمتهم الخطاط الشهير (قُطبة المحرر) الذي ابتكر خطاً جديداً يعتبر مزيجاً من الخطين الحجازي والكوفي، وسمي هذا الخط بالخط (الجليل) حيث استعمله قطبة ومن عاصروه أو جاؤوا بعده في الكتابة على أبواب المساجد ومحاريبها.
ولم يكن خط (الجليل) هو كل ابتكار قطبة، ولكنه ابتكر عدة خطوط أخرى، أجاد فيها وأحسن منها (خطّ الطومار وهو أصغر من سابقه، وكذلك اخترع قطبة خط (الثلث) و (الثلثين) وكان له فضل السبق في ذلك.